

الشبهات المطروحة في أفق

الفكر الإسلامي

أنور الجندي

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

يواجه المسلمون اليوم مرحلة جديدة من مراحل الغزو الثقافى والتحدى :

والمعروف أن المسلمين مروا بمرحلتين هما مرحلة الغزو العسكرى (الاحتـــلال) ومرحلة المقاومة (الاســـتقلال) ويمرون اليوم بمرحلة (التحرر) .

أما المرحـــلة الأولى فهى المرحـــلة التى فرضت عليهم فيها السيطرة الغربية بسطوة نفوذ الاحتلال وفيها سيطر القانون الوضعى ومنهج التعـــليم الأجنبى ونظام الاقتصاد الغربى الربوى .

أما المرحلة الثانية فهى المرحلة التى جرت فيها محاولة المواءمة بين الفـــكر الغربى الوافد (وهو الفكر الراسمالى الليبرالى الديمقراطى الغربى) وبين الفكر الاسلامى .

أما المرحلة الثالثة التى نعيشها اليوم فهى مرحلة الترشيد والأصالة أو محاولة الوصول الى التحرر الكامل من نفوذ الفكر الأجنبى وشبهاته وتحدياته ، وابتعاث الفكر الاسلامى الأصيل باعتباره هو المصدر الحقيقى لنهضة العالم الاسلامى .

وبعد أن تبين بالتجربة الواقعية التاريخية : ان محاولة اقتباس الفكر الغربى (بشطريه) لم يحقق للمسلمين والعرب النتـــائج التى كانوا يرجونهـــا من اقامة المجتمع القـــادر على مقاومة الغزو الأجنبى .

لقد انتهت مرحلة الغزو العسكرى والسياسى وبدأت مرحلة الغزو الفكرى والحضارى .

وانتقـــل العـــالم الاسلامى من الخضـــوع للاستعمار (البريطانى والفرنسى والهولندى) الغربى الى مواجهة نوع آخر أشد تحديا وخطرا هو : الغزو الصهيونى الذى اتخذ من فلسطين رأس جسر فى قلب الأمة العربية فى محاولة لاقامة كيان بديل ووارث للاستعمار . هـــذا هو التحـــدى السياسى والاجتماعى والحضارى ، وقد حمل معه تحديا فكريا وثقافيا يتمثل فى عشرات من المذاهب والنظريات والمفاهيم والدعوات التى تطرح أمام الفكر الاسلامى منهجا مخالفـــا بل معارضا لمنهجه الأصيل .

لقد كان المصلحون المسلمون فى المرحلة الماضية يظنون أنه من الجائز المواءمة بين الفكر الغربى والفكر الاسلامى وكان رفاعة الطهطاوى ومن بعده الى محمد عبده يظنون أن الفكر الغربى له مصادر اسلامية وأنه انتقل الى أوروبا فتشكل كرة أخـــرى وأن فى استطاعة المسلمين استعادته وصياغته من جديد .

غير أن الفكر الغربى الذى كان يعتمد على بعض مصادر لها طابع الدين أو المثالية أو غيرها من المفاهيم ، هذا الفكر قد اختفى وحل بديلا عنه : فكر مادى خالص يستمد مصدره

الأول من المنـــاهج القائمة على الايمان بالمحسوس وحده وانكار ما سواه . وبذلك باعد الفكر الغربى بينه وبين الفكر الاسلامى القـــائم أساسا على وحـــدة المعرفة الجامعـــة بين العقل والقلب ، والروح والمادة ، والعلم والدين ، والدنيا والآخرة .

ويرجع هذا التحول فى الفكر الغربى الى خضوعه للفكر الصهيونى التلمودى الذى سيطر عليه بعد الثورة الفرنسية ومن قبلها أيضا ، والذى مهد عن طريق الماسونية الى قيام أيدلوجية تلمودية استطاعت أن تحتوى الفكر الغربى بشقيه وتسيطر عليه .

ومن هنا فقد اتسعت الشقة التى كان يظن بعض مصلحينا انهـــا يمكن أن تقيم جسرا أو قنطرة بين الفـــكر الغربى وبين الفـــكر الاسلامى .

ولقد كشفت التجارب خلال اكثر من مائة عام أو تزيد أن كل معطيات الفكر الغربى لم تحقق للمسلمين شيئا فى مجال القوة أو البناء أو المقاومة وانها حرمتهم من أهم موارد الحضارة ومصادرها وهى العلوم التكنيكية وأبقتهم خاضعين للغرب فى مجـــال استيراد حاجاتهم وتصـــدير خاماتهم ، دون أن يكونوا قادرين على استيعاب ثرواتهم ونفطهم ومقدرات حياتهم التى تزخر بها منطقة العالم الاسلامى من دون العالم كله .

وفى ظل التحـــديات التى واجهت المسلمين باحتضـــان الاستعمار للغزو الصهيونى كمرحلة أشد خطرا من الاحتلال نفسه ، اذ انها تمثل عملية استئصال كامل لأصحاب الأرض ،

وفرض نفوذ اقتصادى وفكرى واجتماعى من شأنه أن يؤثر بالغ الأثر فى كيان العالم الاسلامى والأمة العربية نفسها ، فقد كان لابد للمسلمين والعرب أن يواجهوا الخطر عن طريق التماس منابع فكرهم وثقافتهم وعقيدتهم فهى وحدها الضوء الكاشف والنـــور المبين الذى يهـــديهم الى منطلق المقاومة والمواجهة والنهضة الحقة .

وهكذا تتميز هذه المرحلة الحاضرة بأنها مرحلة الترشيد والأصالة والتماس منابع الفـــكر الاسلامى الذى يستطيع أن يدفع المسلمين والعرب الى القدرة الكاملة لمواجهة الخطر والتغلب عليه ولا ريب أن تاريخ المسلمين حافل بمثيل هذا الموقف ، وقد كان المسلمون دائما أقدر على مواجهة جائحات سبقت كالتتار والصليبيين والفرنجة عن طريق التماس منهجهم الصحيح المستمد من القرآن الكريم ، والشريعة الاسلامية ، والوحدة الجامعة ، ذلك المنهج الذى قدمه لهم الاسلام وأقام عليه حضارتهم الباذخة ومجتمعهم الواسع خلال أربعة عشر قرنا ، ولقد كان المسلمون بمنهجهم هذا مقتدرين على المواجهة والنصر ، فاذا ما تخلفوا عنه كان عدوهم أقدر على هزيمتهم والادالة منهم .

ولا ريب أن أخطر ما يواجه العرب والمسلمين فى هذه المرحلة هو : الغزو الثقافى ، وحملة التشكيك واثارة روح القنوط واليأس فى القلوب والعقول .

ولن يتسرب اليأس والقنوط فى نفوس المسلمين والعرب الا من مصدر واحد : هو أنهم يصطنعون المنهج الذى فرض عليهم فى مقايسات الأمور وتقدير المواقف واصدار الأحكام : هذا المنهج الذى ركز عليه الغزو الثقافى والتغريب سنوات

وسنوات لكى يحله فى النفوس وفى المجتمع مكان المنهج الأصيل الذى اقام عليه المسلمون حياتهم كلها ، ولعل هذا هو اخطر سلاح تواجه به الأمم ، أن يكون عدوها وخصمها قادرا على أن يخرجها من دائرة فكرها ، لتحكم فى امورها منهجا مغايرا لا يتصل بمزاجها النفسى ولا بذاتيتها ولا بتكوينها الاجتماعى الذى انبنى عليه كيانها منذ أربعة عشر قرنا .

ذلك أن الاستعمار والقوى الخارجية الطامعة فى مصادر الثروة فى عالم الاسلام ، كانت تعرف أن هذه الأمة القرآنية لا يمكن أن تؤتى الا عن طريق تزييف مفاهيمها وتشكيكها فى قيمها واحلال منهج غريب عنها فى مقايسات الأمور وتقدير المواقف واصدار الأحكام ، ولقد كان الغرب والاستعمار يعلمان مدى قدرة هذه الأمة استمدادا من قيمها ، على مواجهة اعدائها وعلى الصمود فى وجه الغزاة ، وقد شكل لها فكرها الاسلامى اسلوبا حاسما فى هذا المجال : هو اسلوب الجهاد القادر على رد العدو ، والمرابطة الدائمة ، والاعداد بالقوة ، واليقظة الكاملة . وقد كانت منطقة العالم الاسلامى ولا تزال وستظل مطمعا للأمم ، ولذلك فقد جهزها الفكر الاسلامى بالقدرة الدائمة على الصمود والأهبة : **(ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة — وخذوا حذركم) .**

ومن هنا كان الاستعمار والغزو الأجنبى يرى من أجل ادامة سيطرته على هذه المنطقة الاستراتيجية الخطيرة ، وذات الكنوز والثروات الضخمة ، أن يحول هذه الأمة عن هذه القيم القادرة على المواجهة ، حتى يخلق منها أمة مستسلمة ترضى بالهوان وتخضع للغاصب ، وترى أنها داخلة فى نطاق ما يسمونه الفتانة العالمية أو الوحدة العالمية

أو الأممية أو غيرها من دعوات تريد أن تصهر المسلمين والعرب فى أتونها وتضمهم فى مجال احتوائها .

ونقطة الخطر هنا هى استسلام المسلمين والعرب لمنهج غير منهجهم المستمد من فكرهم وتراثهم وعقائدهم ، ومن هنا فان أزمة المسلمين والعرب اليوم هى أزمة منهج ، وأن أخطر التحديات التى تواجههم وفى مقدمتها الاستعمار والصهيونية هى التماس منهجهم الأصيل .

ولا ريب أن للمسلمين منهجا ذاتيا أصيلا قائما بذاته مختلفا تمام الاختلاف عن مناهج الشرق والغرب ، ذلك هو المنهج الانسانى الطابع الربانى المصدر ، الذى يقوم على الفطرة أساسا ويلتقى مع العقـل والعلم وأبرز مفاهيمه التوحيد والايمان بالغيب والمسئولية الفردية والالتزام الأخـلاقى ، والايمان بالجزاء واليوم الآخر وهـذا المفهـوم فى مجموعه كل متكامل فالاسـلام يقوم فى رسالته على أساس الترابط بين القيم ولما كانت رسالته موجهة الى الانسان الذى استخلف فى الأرض ، ولما كان هذا الانسان جسما ونفسا وعقلا وقلبا ومادة وروحا ، فان المنهج هو جامع كذلك لا تنفصل فيه القيم ولا تنفصل عنده العوالم ، فهو أيضا يجمع بين عالم الغيب وعالم الشـهادة .

هذا المنهج هو « السر الحقيقى » وراء المعجزة الكبرى التى أقامت الدولة الاسلامية من الصين الى فرنسا فى أقل من سبعين عاما ، لأنه التقى بالفطرة والنفس الانسانية والعقل الانسانى دون تعارض أو اضطراب .

ومن هنا ، وعلى قدر خطر هذا المنهج وأثره فى بناء الأمة

الاسلامية كانت الحملة عليه وكانت المحاولة الضاربة لاثارة الشبهات حوله ومحاولة تدميره وتفتيته واحلال مفهوم آخر بديل له فى نفوس المسلمين وعقولهم عن طريق الفلسفات والمناهج والأيدلوجيات الوافدة .

ومن هنا فقد أقامت القوى الاستعمارية مخططا للغزو الفكرى والثقافى وضعا بهدف السيطرة على النفس الاسلامية والعقل الاسلامى كمقدمة لاخضاع العالم كله اجتماعيا وحضاريا وكأسلوب لاحتواء الأمة وادخالها فى بوتقة النفوذ الأممى بحيث لا تكون من بعد قادرة على الانبعاث من قيمها ومقوماتها الأساسية .

ولقد بدأ هذا المخطط من وقت مبكر عن طريق التبشير والاستشراق ومدارس الارساليات وبعض الصحف والمناهج التعليمية والثقافية التى فرضها الاستعمار على العالم الاسلامى .

تضاعف الخطر بعد أن برزت الصهيونية كعنصر جديد له محاولاته الخاصة فى تزييف التاريخ وتوهين النفس العربية من أجل احكام السيطرة ومن ثم تضاعف المخطط وتوسعت اهدافه وبدات محاولاته تلبس أثوابا جديدة وتبرز فى قوالب ذات طابع علمى براق وتخفى من ورائها السم الزعاف بعد أن استطاعت مخططات الغزو الصهيونية السيطرة على الفكر الغربى نفسه وانتزاعه من مجال الدين والأخلاق والحملة عليهما على أساس المذهب المادى الوثنى .

ومن هنا فقد برزت دعوات علوم جديدة تحمل طابع

المنهج العلمى وهى تخفي من ورائها سموم التلمود واهدافه فى تدمير مقومات الأمم وابتلاعها .

من أبرز هذه الدعوات والمخططات والمذاهب :

أولا : الدعوة الى هـــدم الأديان عن طريق علم الأديان المقـــارن والقول بأن الأمم بدأت وثنية ثم عرفت التوحيـــد بعـــد ذلك .

وهو قول معارض للحقيقة التى جاءت بهـــا الكتب المنزلة والتى تثبتها كل الدلائل التاريخية والكشوف الأثرية والحقيقة أن البشرية بدأت موحدة وأن آدم أبو البشر كان نبيا وكان موحدا .

ثانيا : الدعوة الى هـــدم الأخـــلاق عن طريق مذاهب الوجودية والفرويدية وهدم الأسرة عن طريق مذاهب دوركايم وليفى بريل .

وتحاول هذه المذاهب أن تشكك فى ثبات القيم الأخلاقية وارتباطهـــا بالانسان والدعوة الى اخـــلاق متطورة تختلف باختلاف البيئات والعصور .

ثالثا : الدعوة الى التماس مفهـــوم واحـــد للتـــاريخ هو التفسير المادى الذى طرحه انجلز وماركس وهو مفهوم ناقص ، لأنه يتجاهل عوامل كثيرة أخرى لها أثرها فى توجيه التـــاريخ .

رابعـــا : الدعوة الى اثارة العصبية والعنصرية واعلاء

الأجناس البيضاء وذلك فى محاولة لفرض النفوذ الاستعمارى الغربى على الأمم الملونة والقول بوصاية — زائفة — للجنس الأبيض على العالم والبشرية .

خامسا : محاولة اخراج اللغـــة العربيـــة من مفهومها الذى تختلف به عن اللغات بوصفها لغة القرآن ، وفرض مناهج فى علم اللغات للتحكم فيها وتصويرها بأنها لغة قومية فحسب ، أى لغة أمة ، واذا كان هذا كقانون لكل لغات العالم فانه يعجـــز فى اقرار ذلك بالنسبة الى اللغـــة العربيـــة لأنها الى جانب انها لغة أمة فهى لغة فكر وثقافة وحضارة ودين وأنها تتصل بسبعمائة مليون من المسلمين (بالاضافة الى أهلها) وهدف الحملة على اللغة العربية هو خلق عامية تقضى على لغة القرآن وتمزق الأمة والفكر جميعا .

سادسا : الدعوة الى احيـــاء الحضـــارات التى سبقت الاســـلام واعادة عرض الوثنيـــات والفلسفات والخرافات والأوهام .

وتلك محاولة ماكرة مضللة ولكنها فاسدة ، فقد استطاع الاسلام فى خلال أربعة عشر قرنا أن يقيم منهجا عقليا وروحيا وأن ينشىء مزاجا نفسيا وذوقا خالصـــا مرتبطا بالتوحيـــد والقرآن ومتصلا بأسباب الايمان بالله له ضوءه الباهر الذى لا تستطيع هذه الظلمات أن تقهره .

سابعا : الدعوة الى ما يسمى الأدب العربى المعاصر ، والفـــكر العربى المعـــاصر والثقـــافة العربيـــة المعـــاصرة على أن تبدأ هـــذه الدراسات منذ حمـــلة نابليون وربطهـــا بالارساليـــات والنفـــوذ الأجنبى كأنمـــا هى من معطيـــاته

وهى محاولة ماكرة الى اجتثاث الفكر عن أصوله والفصل بين حاضر العـــرب والمسلمين وبين ماضيهم وخلق ثقافة « لقيطة » لا جذور لها بل أن هناك محاولة مضللة تهدف الى الحيلولة دون ربط الأدب أو الفكر أو الثقافة بتاريخها القديم وماضيها العريق .

من الحق أن يقال أن اليقظة المعاصرة فى الفكر والأدب والثقافة جميعا بدأت من دائرة القرآن وأن جميع الحركات الوطنية والقومية انما استمدت قوتها من مصادر الاســـلام وأنه لا سبيل الى بناء أدب حديث أو فكر أو ثقافة منفصلا عن اللغة العربية والاسلام .

ثامنا : محاولة الادعاء بأن منطقة البحر الأبيض المتوسط شهدت حضارة واحدة هى التى بدأها الفراعنة والفينيقيون ، ونماها الاغريق والرومان ، ثم أتمها الأوروبيون المعاصرون (وأن دور العرب فى هذه الحضارة كان دورا ثانويا) .

والحقيقة أن هناك حضارتين لكل منهما طابعها المميز هما حضارة التوحيد وحضارة الوثنية .

وأن الاســـلام هو صانع الحضارة التى اتسمت بهذا المفهوم فى مواجهة حضارات بدأت بمفاهيم الوثنية وانتهت بمفاهيم المادية وكانت فى مختلف مراحلهـــا معارضة للحق والعدل والرحمة والأخلاق فكانت تضرب واحدة بعد أخرى وتسقط لأنها تعارض سنن الله فى الكون .

تاسعا : محاولة القـــاء بذور الشبهات حول صلاحية الشريعـــة الاسلامية للتطبيق فى العصر الحـــديث والادعاء

بأنها شريعة صحراوية ، موقوتة بعصرها وبيئتها ، وكل الدلائل العلميـــة والتاريخية تكذب هـــذا الادعاء وأقربها مؤتمرات القـــانون الدولى ١٩٣١ ، ١٩٣٧ ، ١٩٥٢ وكلها أشارت الى أن الشريعة الاسلامية شريعة مستقلة لها كيانها الخاص وأنها تحمل منهجا انسانيا لم تصل اليه البشرية بعد وتجرى المحـــاولة التى يفرضـــها النفوذ الغـــربى بالدعوة الى ما يسمى تطوير الشريعة ووضـــعها موضع الاحتواء من القانون الوضعى ولقد كان من أعظم المعطيات التى حققتها الأمة العربية أنها اتخذت من التشريع الاسلامى مصـــدرا أساسيا للقانون ونصت على ذلك فى دساتيرها وميثاق الوحدة .

عاشرا : استطاعت القـــوى الاستعمارية فرض نظـــام الاقتصـــاد الغربى على أغلب أجزاء العـــالم الاســـلامى وهو نظام قائم على أســـاس الربا ومعارض أصـــلا لمنهج الشريعة الاسلامية ، ولقد قامت فى الأمة العربية محاولات علميـــة تؤيدها الجهـــات الرسمية الى بحث اقامة مصرف اسلامى علمى على غير اساس الربا والعمل على وضع نظام تحرير المسلمين من قيود النظام الاقتصادى الوافد .

حادى عشر : كان من أخطر محاولات النفوذ الاستعمارى ايجاد تضارب بين العروبة والاسلام ومحاولة اقامة مفهوم العروبة على اساس النظريات الوافدة والقوميات الأوروبية ولقد تنبه المفكرون العرب والمسلمون الى هذا التحدى الخطير وكشفوا عن الرابطة العميقة بين العروبة والاسلام وأشاروا الى أن الاســـلام هو الذى شـــكل مفهوم العروبة الحق ، وأن العرب قبل الاسلام كانوا يؤمنون بالقبلية وأن الاسلام هو الذى شكلهم كأمة ودفعهم الى الآفاق وكتب لهم أعظم صفحات تاريخهم .

والعروبة ليست عنصرية ، وانما هى قيمـــة ذاتيـــة فى مواجهة الخطر الصهيونى ، ولكنها مفتوحة بالثقافة والفكر والعقيدة على العالم الاسلامى كله وملتقية معه .

ثانى عشر : تحريف الحقـــائق بالمبالغـــة أو الانتقاص كالادعاء بأن المسلمين لا يتجاوزون الآن ٥٠٠ مليون بينما تقرر الاحصائيات المتواضعة أنهم يزيدون على سبعمائة مليـــون وقد يصلون الى الف مليـــون وكما نجد فى كتب التـــاريخ من محاولات لتصوير البلاد العربية بصورة مصغرة أو مهينة أو اثارة الشـــبهات حول مقدراتهـــا وثرواتها ، أو الادعاء بأنها منقسمة الى مذاهب ونحل تتعارض أو تختلف أو تحول دون قيام وحدة فكر عامة بينما الحقيقة غير ذلك ، وأن الخلافات المذهبية الاسلامية هى خلافات فى الفروع أما القيم الأساسية فانها واحدة بين جميع المسلمين .

ومن هنا فان علينا أن ننظر فى الشبهات المطروحة فى أفق الفكر الاسلامى .

فى مجال اللغة العربية :

كذلك جرت المحاولات حول اللغة العربية واثارة الشبهات حول مكانها ودورها الحقيقى فى مجال الفكر الاسلامى وكانت المحاولة تعمل على مقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية ، وتقـــول :

انه ما دامت اللاتينية قد ماتت ودخلت المتحف فلماذا لا تموت اللغة العربية وتتفرع عنها لغات اقليمية والحق أن وجه المقارنة غير صحيح وغير صادق . فقد انتهت اللغة

اللاتينية وتحولت لهجاتها الى لغات وليس كذلك ما يحدث بالنسبة للغة العربية التى ما زال القرآن يظاهرها ويجعل ما كتبت منه منذ أربعة عشر قرنا مقروءا الى اليوم بينما لم يحدث ذلك مطلقا لأى لغة من اللغات الحية . التى تتغير كل ثلاثة قرون فامرؤ القيس السابق للاسلام نقراه نحن الآن ونفهمه بعد أكثر من ١٥٠٠ سنة بينما شكسبير لا يفهمه الانجليز وقد مضى عليه ثلاثمائة عام تقريبا ، وهذه الظاهرة فى اللغة العربية تجعلها لا تخضع لعلم اللغات الذى يحاول أن يحكم على كل اللغات بظواهر عامة مشتركة . ومن تميز اللغة العربية أيضا أنها ليست لغة أمة كما يحدث للغـــات جميعا ولكنها الى ذلك لغة فكر وثقافة وعقيدة لسبعمائة مليون مسلم ، العرب بينهم مائة مليون على الأكثر ومن هنا تنكشف فوارق كثيرة بين اللغة العربية لغة القرآن وبين اللغات القديمة كاللاتينية واللغات العامة .

وقد كانت اللغة العربية بطبيعة تركيبها وتميزها بالقدرة على الاشتقاق والتوالد عاملا هاما فى مكانتها ، وقد وصفها ارنست رينان بأنها خلافا لكل اللغات ظهرت فجأة فى غاية الكمال ، غنية أى غنى بحيث لم يدخل عليها حتى يومنا هذا اى تعديل مهم فليس لها طفولة ولا شيخوخة وأنها ظهرت منذ أول أمرها تامة مستحكمة .

ولقد مضى الاسلام يشق طريقه ومضت معه اللغة العربية وكان حقـــا عليهـــا أن تصـــل الى كل مكان وصـــل اليه ولكن الاستعمار استطاع منذ أكثر من قرنين أن يوقف نموها ويحول بينهـــا وبين الحركة وخاصة فى ماليزيا واندونيسيا وشرق أفريقيا وغربها واعلاء شأن اللغات الأجنبية واللغات الاقليمية ولكنها سوف تستطيع بعد أن تتحرر الأمم من نفوذه

الثقافى ان تعاود توسعها فتصل الى كل مكان فيه مسلم ، ليس بوصفها لغة فكر وعبادة فحسب ولكن على أنها لغة حديث وكتابة وتعامل باذن الله .

ومن خلال هذا الفهم الصحيح لوضعية اللغة العربية بين اللغات يمكننا ان نواجه كل ما يقال عن تطوير اللغة أو تمصير اللغة او اعلاء شأن العاميات والادعاء بأنها لغة خاصة ملك لأصحابها ونفهم أنها كلها محاولات تستهدف :

أولا : عزل العرب عن الوحدة الكاملة بينهم .

ثانيا : عزل المسلمين عن العرب .

ثالثا : عزل المسلمين والعرب عن مستوى البيان فى القرآن الكريم .

ولا ريب ان اللغة العربية جديرة بأن تلتقى دائما فى مستوى بيان القرآن وأن يرتفع الناس اليها ولا ريب أن الدعوة الى اقامة لغة وسطى بين الفصحى والعامية هى احدى محاولات الغزو الفكرى ، وليس لها هدف الا انزال اللغة العربية درجة عن كيانها الذى يرتبط ببلاغة القرآن وبذلك تنهدم ركيزة من ركائز الاسلام وهى حجب المسلمين عن فهم القرآن واستيعابه وهو أمر خطير وهام ويحتاج الى دوام المحافظة على بلاغة اللغة وروحها ، فاللغة أساسا هى فكر الأمة ، والعربية الفصحى مرتبطة بذاتية الاسلام ومزاجه النفسى والاجتماعى .

***

فى مجـــال النهضة :

تثار فى مجال النهضة شبهات منها القول بأن الحضارة الغربية تؤخذ كلهــا (وقد بينا ذلك) ومنها القول بوحدة الثقافة ، أو الثقافة العالمية ، ذلك أن لكل أمة ثقافتها الخاصة التى تستمدها من مقومات وجودها وعقــائدها ، فالمعرفة عالمية والعلم عالمى والحضارة عالمية ولكن الثقافة لا تكون عالمية بحال وللعرب والمسلمين ثقافتهم المستمدة من القرآن واللغة العربية ولهم تلك الذاتية الخاصة المتميزة المستمدة من التوحيد ولا ريب أننا فى هذا الوقت بالذات اذا قبلنا بالثقافة العالمية فان دورنا سيكون دور التابع الذليل الخاضع للكيان الضخم الذى تفرضه الثقافة الغربية على العــالم كله ، وهو دور لا نقبله ولا نرضاه لأنه سيقضى على مقوماتنــا الخاصة والذاتية ، ولقد تقبله أمم ليس لها تاريخ ولا حضارة أما المسلمون الذين سيطروا بفكرهم وثقافتهم على العالم كله ألف سنة كاملة لا ينازعهم منــازع فانه من الخزى لهم أن يستوعبوا أو يكونوا تابعين أو يوضعوا فى مجال الاحتواء والانصـــهار .

لقد طرحت الصهيونية العالمية شعار الثقافة كهــدف من أهدافها الرامية الى تدمير ثقافات الأمم وتحطيمها من داخلها وفرض تلك التطورات الفلسفية التى دمرت الفــكر الغربى واستوعبته ، كالوجودية والفرويدية والماركسية والهيبية .

وهناك فيما يتصل بهذه الدعوة الى تجزئة الفكر الاسلامى ما يستهدف اثارة فكرة « السلام » : ونبذ الحروب ، والمقاومة السلبية وما الى ذلك من أفكار نسبت الى تولستوى وغاندى وحاول بعض الدعاة ردها الى الأديان .

والاسلام لا يعرف الا منهجا كاملا فيه السلام وفيه الجهاد وباب الجهاد والقتال من اكبر أبواب الشريعة الاسلامية وهو دعامة اساسية فى اقامة السلام .

ولقد حرص الاستعمار الغربى ولا سيما البريطانى فى الهند أن يفرض مفاهيم تحملها جماعات مضللة تصور الاسلام بصورة السلام القائم على الجبن والاستسلام للغاصب وكذلك تمكن الاستعمار الفرنسى فى الجزائر وغيرها أن ينحى من دراسات الاسلام باب الجهاد وذلك ايمانا من المستعمرين بأن أخطر صفحة تواجههم فى الاسلام هى صفحة الجهاد التى كانت وستظل القوة الحقيقية للمقاومة والدفاع عن النفس وحتى فى السلم تكون استعدادا وتأهبا وحماية للثغور واثارة الرهبة فى نفوس العدو : **(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) .**

ولقد بلغ الأمر ببعض الكتاب العرب أن يتابعوا المستشرقين فيما يصورونه من تفرقة بين الاسلام فى مكة والاسلام فى المدينة وبين آيات القرآن المكى الداعية الى الترقب والتأهب وبين الآيات المدنية التى تحرض المسلمين على القتال ، والواقع أنه لا فارق مطلقا بين مرحلتين من دعوة واحدة يتكاملان ذلك أن مناهج الدعوات لابد أن تمر بمرحلة بناء الرجال واعدادهم ثم تأتى بعد ذلك مرحلة اقامة الدولة على نفس المنهج الأصيل والاسلام متكامل ولكن الفكر الغربى الذى يحاول أن يحاكمه لا يؤمن بالتكامل وتفترسه الانشطارية ، بالاضافة الى التعصب وتغليب الهوى على جميع الأبحاث والدراسات التى تتصل بالاسلام .

ومن عجب أن لا يدعو الاسلام الى الحرب والقتال وانما

يدعو الى السلام **(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة)** ولكنه يفرض الحرب فى حالة الاضطرار القصوى ثم لا يلبث أن يوقفها فى حسم اذا قبل خصمه الصلح : **(وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)** .

وهناك شبهة أخرى تبطل بهذا المجال هى شبهة الانفصال عن الماضى .

فلا يزال الغربيون يرددون القول ولا يملون مطالبين المسلمين بأن ينفصلوا عن ماضيهم كلية ويرون أن ذلك هو سبيل القوة ، وهم فى هذا مضلون : **(وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله)** ولو كان هذا منهجا صحيحا مع كل الناس فلن يكون صحيحا مع المسلمين الذين لهم منهجهم الربانى الماضى الذى هداهم دوما وكانت هزيمتهم كلما انفصلوا عنه والأوربيون الناصحون لم يفعلوا فى نهضتهم ما ينصحوننا به ، فنحن يطلب الينا الانفصال عن الماضى والماضى متصل خلال أربعة عشر قرنا لم يتوقف اتصاله واستمراره ، ونحن ندعى للانفصال عنه وأوربا تعود الى الماضى وتتبعه من جديد بعد أن انفصلت عنه الف سنة كاملة ، تعود لتربط نفسها بالفكر اليونانى والحضارة الرومانية التى سقطت عام ٤٥٠ م وبدات النهضة عام ١٤٠٠ تقريبا .

والحق أنها دعوة ظالمة ولن تتحقق ولن يقبلها المسلمون والعرب ولن يستطيعوا ذلك لو قبلوا بها ، ويقول هاملتون جب فى نص له : انه ليس فى وسع العرب أن يتحرروا من ماضيهم الحافل وسيظل الاسلام اهم صفحة فى هذا السجل .

فى مجال وحدة الفكر الاسلامى وتكامله :

وكذلك جرت اثارة الشبهات حول وحدة الاسلام ووحدة الفكر الاسلامى . وفى هذا المجال ترددت الدعوى القائلة بأن الاسلام دين : بالمعنى اللاهوتى المعروف فى الغرب وهم فى هذا ينقضون الاسلام فى اكبر مقوماته فالاسلام دين ونظام مجتمع ومنهج حياة ، فاذا فصلت منه الجانب الاجتماعى وقصرته على جانب العقيدة أو العبادة وحده كان ذلك تحريفا خطيرا لمضامينه واسسه ويمكن القول أن الغرب يعرف ذلك ولكنه ينكره من ناحيتين : من ناحية انه يريد أن يجعل الاسلام خاضعا لنظرية الفكر الغربى التى تفصل بين الدين والمجتمع وبين الأخلاق والمجتمع . وبين التطلع الى أن يفقد الاسلام أقوى مقوماته فينهار ويصبح مركبا ذلولا للحضارة الغربية والاستعمار . والواقع أن الغرب يخشى الاسلام فى مفهومه الصحيح لأنه يحول دون نفوذه وسيطرته ويدفع المسلمين الى مقاومته وتحرير أرضهم منه .

وهذا هو لب التغريب فاذا وصل الى اقناع المسلمين بأن الاسلام دين لاهوتى فحسب ، انفتح الطريق أمام الغزو المادى فى مجال الفكر وأمكن اخضاع المسلمين للأيدلوجيات والفلسفات والمذاهب الاجتماعية المختلفة ، مما يؤدى الى تدمير مختلف القيم الأخلاقية والنفسية والروحية التى بناها الاسلام فى المسلمين وبذلك يصبح الفكر الاسلامى صورة هزيلة من الفكر الغربى الذى يمر الآن بأقسى مراحل أزماته واضطرابه بعد أن سقط صريعا فى براثن التلمودية الصهيونية .

وفى الفكر الاسلامى المستمد من الاسلام يقوم منهج تكامل قطاعات الفكر فى نسق واحد ، فالاجتماع والسياسة

والأدب والتربية والاقتصاد هذه وحدات وأجزاء وعناصر من شيء واحد هو الاسلام ، واذا كان الفكر الغربي يجرى على الفصل بين العناصر والوحدات والأجزاء فان الفكر الاسلامى لا يقر هــذا الفصل ويرى فيه تدميرا للشخصية الانســانية وللمجتمع نفسه ، ويرى فيه تصورا فى النظرة باعلاء عنصر على عنصر . وفى العصر الحديث يعلو عنصر المــادة ويكاد يسيطر على العناصر الأخرى فيصل الى درجة تشبه درجة القداسة ، وكذلك فيما يتصل بالعقل والعلم ، أما الاســلام فلا يرى المادة والروح الا متكاملين وما العقل والقلب الا عينان فى وجه واحد ، والدنيا والآخرة الا متصلين صلة جــذرية فالحياة كلها تدور حول رسالة وتتصل بانسان له مسئوليته الفردية ازاء عمله وجزاءه على هذا العمل . وانسان متصل بمجتمع متفاعل معه ، وانسان له قلب وعقل وروح وجسد لا انفصال بينها .

ومن هذه الوحدة القائمة بين العناصر فى الفكر والحياة فى الاسلام ، والالتقاء بين الأجزاء لا نجد قضية للخلاف بين العلم والدين ولا بين الدين والضمير .

ذلك أن بعض المحاولات جرت للفصل بين الدين والضمير ، والقول بأن العمل الأخلاقى يمكن أن يتخذ طريقه دون أن يكون صاحبه عاملا بأوامر الدين ، وتلك دعوة تتردد اليوم بين المسلمين : يقول أحدهم : انا افعل الخير ولكنى لا اصلى .

والواقع أن الاسلام بحكم أنه منهج متكامل ونظام شامل لا يقر هذا ، ولابد لأى عمل اخلاقى أن يتحــرك فى اطــار العقيدة نفسها .

. ولابد أن يتبعث من الايمان بالله أساسا وأن يكون فى منزلة الصلاة تماما والشبهة هنا هى أن الغربيين حين ارادوا الخروج من الدين وضع فلاسفتهم مناهج أخلاقية حاولوا أن يقولوا أن الناس فى حاجة الى الأخلاق وأن الاخلاق تقوم على فكرة الواجب وأن الناس تستطيع أن تقدم المعونة والمساعدة والاحسان والبر دون أن يكون لذلك صلة بدين ما . ولكن هذا المفهوم لا يقره الاسلام ولا قيمة لاى عمل أخلاقى لا يرتبط بالتوحيد والايمان الكامل بالاسلام كله . وقد حذر القرآن تحذيرا شديدا من الايمان ببعض الكتاب . ولا ريب أن هذا المنهج الأخلاقى حين انفصل عن الدين فى الغرب لم يلبث طويلا حتى ضربته حركة الاحتواء التلمودية فظهر منهج المدرسة الاجتماعية الذى حطم مفهوم الأخلاق نهائيا .

أما الاسلام فان الأخلاق فيه تقوم على أساس الثبات أولا وتتصل بالعقيدة فالأخلاق فى مفهوم الاسلام تطبيقية وليست نظرية كما هى فى الفلسفة اليونانية وليست أخلاق سعادة ، ولكنها أخلاق تقوى لقد كانت الأخلاق اليونانية نظرية خالصة منفصلة عن واقع الحياة وكانت الفلسفات الهندية والمجوسية منعزلة عن المجتمع وكلاهما لا يعترف بواقع الحياة أما مفهوم الاسلام الأخلاقى فيقوم على أرض الواقع وهناك فى هذا المجال محاولة لوصف الفكر الاسلامى بالفكر الدينى وهو قول ينبع من الانشطارية الغربية ذلك أن الاسلام لا يفصل الدين عن الأدب أو اللغة أو التشريع أو الاقتصاد أو الاجتماع ، والدين هنا بمعنى توجيه العمل لله وأخلاقية العمل ومراقبة الله فيه وتحريره من الهوى والغرض .

وفى ضوء ما ذكرنا ليس هناك فكر دينى ، أو لغة دينية على النحو الذى يفهمه الغربى الذى يفصل بين المفاهيم .

وهكذا تختلف نظرة الفكر الاسلامى عن نظرة الفكر الغربى فى أمور كثيرة : وفى مقدمتها البطولة وتقديرها والاحتفاء بها فالاسلام لا ينظر الى البطل أو العظيم بقدر ما ينظر الى عمل البطل ولذلك فهو حين يحتفى بالبطل يعيد الذكر والتقدير لعمله ويدعو الى الانتفاع به ، وهذا هو السر الحقيقى وراء انصراف الاسلام عن الصور والتماثيل كوسائل لتكريم الأبطال .

ذلك أن تلك الأسماء الكثيرة التى تتردد فى الغرب على انها آلهة وانصاف آلهة ، مما أورده اليونان والرومان وغيرهم ، لم تكن فى الأصل الا ابطالا أعجبت بهم أممهم وتعلقت بهم ثم شاءت بعد ذلك أن ترفعهم من مقامهم الانسانى الى مقام الآلهة . ثم هى لم تلبث أن انصرفت عن مفهوم التقدير العملى لعمل البطل الى عبادة البطل نفسه وبذلك نشأت عبادة جديدة صرفت الناس عن عبادة الله الواحد الأحد وقد أصبحت عبادة الأبطال وعبادة الجمال وتأليه العقل وتأليه البطل عبادات تتفق مع طبيعة النفس الغربية التى استمدت مفاهيمها فى العصر الحديث من الوثنية اليونانية .

ومن هنا فقد حرص الاسلام على تحرير أهله من عبادة الفرد أو عبادة شىء ما ، الا الله سبحانه وتعالى ، ومن هنا كان حرص القرآن على أن يصف أعظم شخصية فى المسلمين وهو محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : **(قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد)** فالنبى بشر مؤيد بالوحى ، يعيش ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ويموت أيضا ، أما الله سبحانه وتعالى فانه الحى الذى لا يموت .

ومن هنا حفظ الاسلام مفهوم البطولة عن الانحراف الى عبادة الفرد وحفظ عبادة الله من الوثنية والشرك . لقد رفع الاسلام عن الفكر البشرى القيود وحرر العقل البشرى من الأصفاد . ولم يجعل للأحجار والتماثيل والأصنام مكانا فى ايمانه القائم على التوحيد الخالص .

* * *

دار السلوم للطباعة
القاهرة ، ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت ٣١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٤٦ / ٧٩
الترقيم الدولى ٤ — ٢٩ — ٧٣١٨ — ٩٧٧